الجندية

وسيلة من وسائل التربية العامة

بقلم الأستاذ إبراهيم عبد المجيد اللبان
المفتش بوزارة المعارف العمومية

على كثرة ما يسمع المرء من أقوال وأمثال ، تنفرد بعض الكلمات بقوة وقعها وطول بقائها فى النفس و بعد أثرها فى توجيه التفكير والتقدير .

فى عهد دراستى سمعت مرة أستاذنا الكبير المغفور له اسماعيل بك رأفت يتحدث فى لحظة من لحظات إلهامه عن طرق التربية العامة ، ولعله لم يأت بجديد فى حديثه ولكنه — كما يعرف جميع عارفيه — كان يستطيع بسحر بيانه وقوة وجدانه أن يريك الجدة فيما أخلقه تكرار الألسن ، حتى ليخيل إليك وأنت تسمعه يتحدث عن المألوف المأنوس أنك تستكشف للمرة الأولى فى حياتك آفاقا علمية لا عهد لك بها من قبل . سمعته يقول يجب عليكم كمربين أن تدركوا قيمة الجندية كوسيلة من وسائل التربية العامة .

كنت الى ذلك الحين كغيرى من الناس إذا فكرت فى الجندية يبدو لى الكثير من جوانبها ويخفى علىّ هذا الجانب . كنت أرى فيها ما يرى الناس من أنها تدريب بدنى محض على أعمال آلية بحتة ولا أذكر أنى فكرت إطلاقا فى أنها قد تكون مصدر ثقافة أو تهذيب .

ومهما يكن فقد كانت تلك الكلمة مصدر شعور جديد عميق تولد فى نفسى فى تلك اللحظة ، وفاتحة تفكير طويل استمر منذ ذلك الحين .

" الجندية وسيلة من وسائل التربية العامة " وهذه حقيقة من أصدق الحقائق الاجتماعية وأبعدها أثرا . وما هو إلا ان يتحرر المرء من النظرة التقليدية الضيقة حتى يشعر بصدق هذه النظرية وخطورتها وروعتها وما تنطوى عليها من خير اجتماعى كبير .

ومن شاء أن يختبر صحة هذه النظرية فلن يتقاضاه ذلك أكثر من موازنة بسيطة بين حياة المصرى بعد عودته من الجندية وحياة أقرانه الذين لم يتح لهم الا نخراط فى سلكها . فليس من العسير اذ ذاك أن يرى المرء أن تغيرا كبيرا قد حدث للكثيرين ممن عادوا من الجندية وأن الجندية قد تركت أثرا ظاهرا لا فى أجسامهم وقوامهم فحسب ، ولكن فى نفوسهم وتفكيرهم وآدابهم الاجتماعية وأسلوب حياتهم المنزلية ومسلكهم إزاء زوجاتهم وأولادهم ونظرتهم الى المستقبل والواجب . وأن هذا التغير قد كان تطورا نحو المثل الأعلى للشخصية والحياة الاجتماعية الحقة التى تسعى التربية العصرية الى تحقيقها وتثبيت دعائمها .

لا تقتصر الجندية فى بلد من بلاد العالم على التدريب العسكرى وحده و إنما تحاول أن تطبع فى نفوس الجند كثيرا من العادات الصالحة كالنظافة والنظام والاتصال الرشيد المهذب بين الرئيس والمرءوس والتفكير فى الشؤون العسكرية والعادية .

والجند إزاء ذلك فريقان : فريق يمثل تلك المعانى النفسية والاجتماعية العالية فتصبح بعد ذلك من مقوماته النفسية . فإذا عاد إلى بيئته الأولى حملها معه فأصبحت هناك ، كما كانت هنا ، الأسلوب الذى يجرى عليه فى حياته والنهج الذى ينهجه فى صلاته الاجتماعية وأحواله العادية لا سيما إذا كانت البيئة ملائمة لهذه الآداب الجديدة ومساعدة على الاحتفاظ بها .

و إلى جانب هؤلاء فريق لا يرى فيها إلا رسوما وتقاليد ثقيلة فهى تستقر منه فى الجوارح لا فى الجوانح وتبقى أجنبيـــة عن نفسه وعقله حتى إذا ما انقضت أيام الجندية طرحها كما يطرح السجين أغلالا ثقيلة كانت تعوقه عن الحركة الحرة الطليقة وارتد إلى عاداته القديمة مطمئنا إليها فرحا بها .

نخلص من هذا التمهيد بنتيجة وهى أن كل هذه الحقائق تتلاقى عند نقطة واحدة : هى أن الجندية تدريب وأن هذا التدريب يحدث تطورا نفسيا خطيرا وتحولا بينا فى شخصية ذوى الاستعداد العالى ، وأن هذا التطور النفسى يحقق قدرا كبيرا من مقاصد التربية الحديثة .

والواقع أن الجنـدية والتربية المدرسـية تتفقان فى الجوهر واللب والصميم ، وإذا استعرنا لغة علماء التربية ونظرنا إلى الجندية على ما هى عليه اليوم نظرة وزن وتقدير جاز لنا أن نقول إن الجندية ليست إلا نوعا خاصا من التربية البدنية ممتزجا بقدر محدود من التربية الاجتماعية ، وأن التربية المدرسية لا تختلف عنها اختلاف النوع عن النوع و إنما تمتاز عنها بسعة أغراضها واتساع مراميها وتعدد وسائلها التى تتذرع بها لإدراك تلك المقاصد الكثيرة.

ويجب أن أبادر الآن إلى تقرير حقيقـة لا بد منها ، تلك أن الجندية لا تشعر بنفسها كعملية ثقافية أو تهذيبية، ولا تحاول أن تتجه هذا الاتجاه، و إنما تشعر بنفسها كإعداد عملى لمهنة خاصة وهى مهنة الحرب .

ولست أحاول أن أسلبها هذا الشعور أو أدعوها إلى الإقلال منه ، فلا بد من وجود جيش قوى مستعد للدفاع عن البلاد ، ولا بد من أن يقضى أفراد هذا الجيش زمنا طويلا أو قصيرا فى تدريب غايته الأساسية إعدادهم للقيام بمهمتهم الحربية على خير الوجوه وأفضلها و إنما أردت الإشارة إلى أن الجندية ، سواء أقصدت أم لم تقصد ، كانت مصدر ثقافة وتهذيب لعدد ليس بالقليل ممن انتموا إليها .

قد يقف كثير من الباحثين عند هـذه الملاحظة العارضة فينتهى البحث إلى غير نتيجة عملية ، و إنما يبدأ الإصلاح والتجديد حينما يشعر الباحث الاجتماعى إزاء مثل تلك الحقائق الهامة بمثل ما يشعر به المنقبون فى أغوار الأرض إذا اصطدمت معاولهم بعرق من عروق

المعادن الكامنة فى جوفها، يبدأ الإصلاح حينما يدرك المفكرون قيمة هذه الحقائق وما تنطوى عليه من بذور الخير والإصلاح ، وحين يفكرون فى طرق استثمارها والاستفادة منها ، يبدأ حينما يشعرون بأنهم قد وضعوا أيديهم على مصدر من مصادر الخير الاجتماعى التى قد تفيض بالخير الكثير إذا أحسن القيام عليها وابتكرت الطرق لإنمائها واستثمارها .

شهدت فى أثناء مقامى بانجلترا عددا من الجند يتدربون على أعمال جديدة لم تكن الجندية تعنى بالتدريب عليها : كانوا يتدربون على أنواع مختلفة من الصناعات والمهن ، وقد تولى أحد المسئولين شرح ذلك للحضور ، فقال : إن الباعث على ذلك هو أن جمهرة كبيرة من الجند الذين يقضون عددا من السنين فى الجندية ، كثيرا ما يجدون أنفسهم بعد انقضاء مدتها فى حالة بطالة وفراغ بسبب عجزهم عن مزاولة الحرف والصناعات الشائعة فى المجتمع ، فرأينا أن نعدهم وهم لا يزالون فى الجندية للحياة العملية التى يستقبلونها والتى لا مفر لهم من خوض غمارها .

ليس من شك فى أن هذا الحادث على بساطته قد افتتح عهدا جديدا فى حياة الجندية ، فهو أول محاولة عملية للخروج بالجندية من الدائرة الضيقة التى كانت إلى ذلك الحين محصورة فيها ، وهو أول محاولة جدية للاتجاه بالجندية نحو غايات التربية العليا ، ولكنه لا يزيد على أن يكون محاولة ضيقة المدى .

تحت تأثير هذه الظروف مجتمعة كان من الطبيعى أن يتجه بى التفكير إلى الجندية المصرية .

وهنا أسائل نفسى : ما دامت الجندية وسيلة من وسائل التربية العامة سواء أقصدت ذلك أم لم تقصد ، وما دامت الأنظار قد اتجهت إلى توسيع نطاق هذه التربية حتى أصبحت تشمل التدريب الصناعى ، أفليس من الممكن الآن وقد تقلصت ظلال الفكرة القديمة أن تتقدم بالجندية المصرية خطوة بل خطوات إلى الأمام فتتخذ منها إلى جانب ما تقوم به من الإعداد العسكرى وسيلة إلى ثقافة أوسع وتربية أتم وأوفى ؟ .

تمتد الخدمة العسكرية المصرية فى الجيش العامل خمسة أعوام طوال ، وإذا نظرنا إلى نوع التدريب الذى يقوم به الجند فى هذا الزمن الطويل وجدناه تدريبا محدودا يتم عادة فى أشهر معدودة يعيش الجند بعدها حياة هى أشبه شىء بحياة التعطل والفراغ التى تشجع الكثير من الرذائل الخلقية .

زمن الجندية فى مصر إذاً طويل ، يمر أقله فى تدريب ضئيل ويمضى أكثره فى عطلة لا لسبب إلا أن التفكير لم يتجه بعد إلى إنفاقه فى طرق أجدى وأعود بالنفع . وإذا نظرنا إلى ما يسبق الجندية وما يتلوها وجدنا أن هناك أسبابا قوية تجعل من العدل التفكير فى تغيير أوضاع الجندية المصرية الحالية وجعلها أكثر ملاءمة لحاجة البلاد والجند معا .

قد لا يكون للجندية الفرنسية مثلا وظائف ثقافية . ولكن الأمر لدينا مختلف . فان الفرنسى بحكم قانون البلاد وتقاليدها يتلقى ثقافة وافية قبل أن يصل إلى سن الجندية . أما

الطبقات المصرية التي تنخرط عادة في سلك الجندية بجمهرتها غير متعلمة على الإطلاق . وقد تكون الجندية فرصة لتلافي هذا النقص التهذيبي ومحو أثر الظلم الاجتماعي الذي حاق بهم .

في البلاد الأوربية ، وفي انجلترا نفسها ، نوع من التربية يسمى تربية البالغين . وغرض هذه التربية تدارك ما قد حاق بأبناء الطبقات الفقيرة الذين لا يصلون عادة إلى المدارس العليا أو الجامعات بسبب نقص في التعليم وقصور في التثقيف . فاذا كانت تلك الممالك ترى من الحق عليها أن توفر لأبناء الطبقات الفقيرة أسباب النهوض إلى مستوى التعليم العالي ، أفلا يكون من واجب مصر أن تفكر في إيصال القواعد الأولية للثقافة إلى جميع أبناء البلاد بكل ما تملكه من وسائل ؟ فاذا كان الأمر كذلك وكانت الجندية إحدى الفرص النفيسة التي تعيننا على تحقيق هذه الغاية السامية ، ألا يكون من الحكمة وسداد الرأي استخدامها لهذه الغاية ؟

ليس الجندي المصري بعد خروجه من الجندية بأقل حاجة إلى صناعة أو مهنة يستعين بها على استدرار أخلاف الرزق لنفسه وذويه ، بل هو أحوج إلى ذلك من غيره .

فطبيعي إذاً أن نفكر في تغيير الوضع الحالي للجندية المصرية وأن نتخذ من سنيها الخمس ذريعة لتوسيع نطاق ثقافة الجند وإعدادهم للحياة التي تنتظرهم بعد انقضاء أيام الجندية ، ووسيلة لرفع ما لحق بهم في أيامهم الأولى من حيف اجتماعي كبير .

إن سنيّ الجندية تقتطع عادة من ريعان الشباب وزهرة العمر ، وهي السنون التي يقضيها الطالب عادة في الجامعة . وفيها تكون القوى العقلية والبدنية في عنفوانها وشدة وقدتها واضطرامها . فهي لذلك أنفس وأثمن من أن تحتكرها الأعمال العسكرية الآلية والبطالة التي تتلوها أو ترافقها . وهي في الواقع جزء من عهد التكوين البدني والعقلي فلا يحق لنا أن نعطلها هذا التعطيل ونتركها خلوا من كل إعداد عملي وثقافة فكرية .

ولا نحب أن نتوسع فيما نقترحه من تغيير فكل الذي نريده هو تعليم القراءة والكتابة ومبادئ الرياضة والرسم ثم بعض الصناعات السهلة .

ومن البين أن هذه الدرجة من الثقافة لن تمس الاستعداد الحربي بنقص ، بل الواقع أنها من عوامل زيادته وتهذيبه ورفع مستواه . فان القراءة والكتابة والرياضة ستعينهم على فهم الأصول الحربية فهما مستنيرا . أما الصناعات فلن يقتصر نفعها على الجند أنفسهم بل من الميسور أن تسخر هذه الصناعات لخدمة الجيش وسد حاجاته .

ولا ينبغي أن تخيفنا النفقات فمن السهل اختيار صفوة الجند والمتعلمين منهم ليقوموا تحت إرشاد الضباط بتعليم سواهم وتدريبهم .

فلنقدم إذاً على التغيير ، ولنوسع وظيفة الجندية الثقافية فنرفع بذلك مستوى الجندية ونصون مستقبل الجنود ونقضي بذلك حقا اجتماعيا واجب القضاء .

إبراهيم عبد المجيد اللبان
B.A., M.A., T.D., London.